

## ثقافة السلعة تهزم ثقافة الروح



«الإنسان روح وجسد، ونصف ثقافته يتصل بالروح والمعنى والأمور الاعتبارية وكل الأشياء غير الملمسة، أمّا النصف الآخر فيتصل بالجسد وحاجاته المادية المختلفة». ويمكن القول: إنّ بين ثقافة الروح وثقافة الجسم أو السلعة نوعاً من المترادع على الوجود، لكن يبدو أنّ ثقافة السلعة تدفع بثقافة الروح في اتجاه التناكل على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي. ومن الممكن لثقافة الروح أن تصمد على نحو جزئي أمام ثقافة الجسم أو السلعة حين يقوم الواحد منا بمحاجهة نفسه في ذاته - تعالى - وحين يبذل جهداً مصاعفاً من أجل مقاومة التيار الجارف. ومن الملاحظ فعلاً المحسوس والملموس يتحدد بصوت أقوى من المعنوي والاعتباري، ولهذا فإنّ استجابة الناس للمادة وما يتصل بها أقوى بكثير من استجابتهم لصوت الروح والتداعيات الاعتبارية، وهذا شيء يدعو إلى الأسف، لكنه في الوقت نفسه يشكّل علامة كبرى على خارطة ابتلاءه - تعالى - لعباده في هذه الحياة.

تتكوّن ثقافة الروح من جملة من المعايير النبيلة مثل الإخلاص والحب والوفاء والمصداقه والحنين إلى الماضي والتعاطف والقدرة على التضحية من أجل الآخرين ومن أجل الكرامة... أما ثقافة السلعة فتتمثل بمعاني التملك والاستحواذ والانتفاع والترفة والتجارة والصيانة والاستهلاك والنفوذ... ويمكن أن تلاحظ أنّ ثقافة الروح تتصل بالرحمة والعطاء، وثقافة السلعة تتصل بالقوة والاستحواذ. في الأحياء الفقيرة يحتك الناس ببعضهم على نحو أكبر بكثير مما يحدث في الأحياء الغنية بسبب ضيق مساحات البيوت والأزقة والحرارات، وبسبب التبادل الخدمي والسلعي الذي يجد الفقراء أنفسهم منهمكين فيه بسبب نقص المال، وهذا الاحتكاك وهذا التبادل النشط يُنشئ ثقافة الروح، ويمدها بالحيوية والقدرة على الاستمرار. أما الأحياء التي يسكنها الأغنياء فإنّها تكون فسيحة، وأسوار المنازل فيها عالية، ولدى الناس فيها نوع من الاكتفاء الذاتي، وهذا كلّه يدفع بهم نحو الانكفاء على أنفسهم، ولا سيما في هذه الأيام حيث توفر التقنية للناس في البيوت كلّ أشكال المتعة والترفيه، وهذا كلّه يُضعف ثقافة الروح على الصعيد الاجتماعي، ويستدعي صورها على الصعيد الفردي. مع التقدم الحضاري تكثر الأشياء، وتكثر السلع، ويصبح الناس مشغولين أكثر فأكثر بتوفير المال الذي يمتلكون عن طريقه الأشياء التي يحتاجون إليها، كما ترتفع الخدمات التي يمكن تقديمها، وهذا يزيد من استغناء الناس عن بعضهم بعضاً.

ونحن نعرف كيف كان الناس في القرى والبوادي يفتحون بيوتهم للغربى وابن السبيل ليأكل على موائدتهم، وينام عندهم أيامًا عديدة، لكن هذا انتهى بوجود المطاعم والفنادق، وانتهى معه سيل من علاقات المودة والوفاء والذكريات الجميلة. تراجع ثقافة الروح على نحو لم يسبق له مثيل بسبب عمليات العولمة المتضادعة، وهي لا تروج لمعاني القيم النبيلة، وإنما تروج للسلع، وتفتح وعي الناس على معانى القوة والمنافسة والاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأشياء. ثقافة الأشياء تتصل بالعالمية وبالحركة التجارية. أمّا ثقافة الروح فذات طابع محلى، وهي تنزع إلى الخاص والشخصي. لكن هل تستسلم ثقافة الروح، أو هل يصح أن تستسلم أمام ثقافة السلعة؟

لا شيء يستسلم للفناء بسهولة، فـ[عزوجل] - فطر الأشياء على الممانعة من أجل الاستمرار في الوجود، وثقافة الروح تحاول أن تحمي نفسها من الاندثار عن طريق التحول من كونها ثقافة (روح) لتصبح ثقافة (هُويَّة) وبذلك تحرر المجتمع على تبنيها والدفاع عنها بوصفها جزءاً من وجوده المعنوي. ولا يخفى أنّ الناس يشعرون أنّهم صاروا أكثر دنيوية، وهم يرون في الزهاد والأفباء وفأعلى الخير حراساً على الهُويَّة ومقاومين للعدوان الواسع الذي تقوم به الثقافة الغربية الطامحة.

- كيف يكون التعامل مع هذه السنة؟

1- إذا كان ما هو فطري وطبيعي شيئاً جيداً، فينبغي أن يستمر ولو عن طريق التنظيم الممطئن، كما يحدث في أحياء الأغنياء اليوم من لقاءات دورية أسبوعية أو شهرية.

2- يمكن لثقافة الروح أن تنتعش كثيراً من خلال تأسيس الجمعيات الخيرية وإطلاق البرامج والمشروعات الإغاثية واللاربية، إنّها فعلاً تغذي معانى التعاطف الإيجابي والتعاون وكلّ المشاعر المشتركة.

3- علينا أن لا نسرف في تكديس الأشياء في بيوتنا، لأنّها حين تكثر توجد لها مجالاً حيوياً في عقولنا ونفوسنا، وتضغط بالتالي على أرواحنا. وسنكون من أهل الحكمة إذا عملنا بالمقدمة الآتية: (استغناوك عن الشيء خير من استغنائك به). ولننذكر على سبيل الاتعاظ قول [١] - تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النَّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَدَّطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَرْعَامِ وَالْحَرْثَ ذَلِكَ مَتَاعٌ الْجَيَّاهُ الدُّرْبَى وَاللَّامُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ \* قُلْ أَؤُنَبِّهُنَّكُمْ بِرَحْبَرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ أتَّقَوْا عِنْدَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَاجُ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّامِ وَاللَّامِ بَصَيرٌ بِالْعِبَادِ) (آل عمران / 14-15).

المصدر: كتاب هي.. هكذا (كيف نفهم الأشياء من حولنا؟)